أمانة الرسول وإلى ماذا يؤدي اعتقادُ الخَلَـل بها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الأمين، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد استمعت إلى مقطع فيديو لأحد أكاديميِّي كليات الإلهيات في تركيا، سمعته يقول بعد أن تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ القلم: ١٠ – ١٣، سمعته يقول على وجه الاستفهام الإنكاري: "هل يجوز أن يكون هذا من كلام الله؟" منكرًا لكون هذا الكلام من كلام الله تعالى، ويقول مثل هذا الكلام في آيات كثيرة من آي القرآن، منها الآيات التي ورد فيها الأمر بقتال الكفار، ويرى أن هذه الآيات من إضافة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم، مستندا في هذا إلى ما يراه ويذهب إليه من أن ألفاظ القرآن من إبداع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم قد تصرف في الوحي الذي أوحاه الله إليه وزاد فيه بالطريقة التي رآها، أو بالطريقة التي اقتضاها حال المخاطبين، أو بالطريقة التي اقتضاها الوضع في ذلك العصر، أو بالطريقة التي اقتضتها حالته النفسية من الرضا والارتياح والمنشط، أوالحقد والغضب والمكره والهياج، هذا خلاصة ما يذهب إليه الرجل ويراه، وحاصله: أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم قد تقول على الله بعض الأقاويل.

ونحن لا نعرف الرجل معرفة شخصية، ولا نتعرض لشخصه، ولا نقصد الإساءة إليه، ولكن رأينا من واجبنا الديني والعلمي أن نتعرض لرأيه هذا وقولِه بأن محمدا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قد تصرف في القرآن وزاد فيه، ونبين أنه على ماذا ينبني هذا الرأي وإلى ماذا يؤدي، إشفاقا على الرجل وعلى من يتأثر بهذا الرأي الخطير، وقد قالوا: صديقك من صَدَقك لا من صدَّقَك، ونحاول الاختصار الشديد، والتركيز على بيان أهم الأمور التي يؤدي إليها هذا الرأي من الجهة العقدية، مع التعرض لبيان بطلان القول بأن لفظ القرآن من عند محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فنقول وبالله التوفيق:

1 – الدين الإسلامي كسائر الأديان ركيزته التي يرتكز عليها وقطبه الذي يدور عليه هو الرسالة والرسول، والقطب الذي تدور عليه رسالة الرسول هو الأمانة، أن يكون أمينا عند الله تعالى أي في علم الله حتى يأتمنه الله على وحيه ورسالته، ويكون أمينا فيما يؤديه عن الله، وأن يكون أمينا عند الناس حتى يثقوا به ويرتاحوا إلى الإيمان به وإلى اتّباعه، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ الأنعام: ١٢٤، فلو تقوَّل الرسول على الله بعض الأقاويل لأخذ الله منه باليمين ثم لقطع منه الوتين كما وعد الله بذلك، ولو ضبط الناس على مدعي الرسالة كذبة واحدة أو خيانة فذة لما وثق به الناس على أنه رسول لله تعالى، ولَعَدُّوه من المتنبئين، ولتجنبوه وباعدوه وتباعدوا عنه.

فطبيعة الرسالة تقتضي أن يكون الرسول من الأمانة ومن الصدق ومن الصفات العلية ومن مكارم الأخلاق بحيث لا يبقى للناس على الله حجة في عدم الإيمان به وعدم اتباعه كما قال الله تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ النساء: ١٦٥ وقال تعالى: ﴿ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ الأنعام: ١٤٩.

2 – وبناءً على رأي الرجل هذا ليس سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأمين على وحي الله ولا وثوق به فيما ينسبه إلى الله وينقله عنه، وأصل مشكلة الرجل: هوعدم إيمانه بأمانة الرسول وعدم وثوقه بصدقه، وبناءً على هذا الرأي ينهار الأصل الذي بُني عليه رسالة الرسول، وهو الأمانة والصدق، وينهار صرح رسالته، وينهار الدين الإسلامي بأصوله وفروعه!

3 – عندما تنهارالوثوق بأمانة الرسول صلى الله عليه وسلم وبصد قه فيما يبلغه عن الله، ينهار الوثوق بكل ما أخبر به الرسول ونقله عن الله، وتنهار قداسة القرآن العظيم، وينهار الوثوق بأنه كلام الله، لأن ناقله إلينا على أنه كلام الله هو سيدنا محمد، ويكون هناك احتمالان مساويان لاحتمال كون القرآن كلام الله تعالى:

الاحتمال الأول: أن يكون قسم منه من كلام الله والقسم الآخر من عند سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما هو صريح كلام الرجل، ووسائل التمييز بين القسمين وأدواته من العقل والنقل مفقودة، فيسقط القرآن كله عن الوثوق.

الاحتمال الثاني: أن يكون كله من كلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومن عنده ومن تقوُّله على الله.

4 – من أجل أن الرجل لا يقول بأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم متنبئ ويسلّم بأنه رسول لله تعالى صلى الله عليه وسلم يأتي الدور– بناءُ على رأي الرجل هذا – إلى الله الذي أرسل سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا، وتأتي الأسئلة التالية:

* هل كان الله تعالى يعلم أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم سيتقوّل عليه أم لم يكن يعلم ذلك؟

* وإن كان يعلم ذلك فلماذا أرسله وهو يعلم أنه سيتقوّل عليه؟

* وإن لم يكن يعلم ذلك فمع نسبة الجهل إلى الله –تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا– فلماذا لم يكُفَّه عن هذا التقوُّل عندما تقوَّل عليه، ولماذا لم يأخذ منه باليمين، ولم يقطع منه الوتين، وقد وعد الله بذلك بقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ الحاقة: ٤٤ - ٤٧؟

* أم أن الله تعالى أخلف وعده هذا محاباة لمحمد صلى الله عليه وسلم كما حاباه بإرساله رسولا مع علمه بأنه سيتقوَّل عليه؟

* أم أن هذه الآية من القسم الذي تقوَّله سيدنا محمد على الله تعالى، وسَكَتَ الله على ذلك؟

5 – وأما ما يذهب إليه الرجل من أن لفظ القرآن من عند سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهو متناقض في هذا الكلام، لأن معنى هذا الكلام أن معانى هذه الألفاظ القرآنية موحاة من عند الله تعالى، وأما سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم فقد عبر عن هذه المعاني وأفادها إفادة صحيحة كما هي بألفاظ من عنده، لكن الذي يقصده الرجل بهذا الكلام ويذهب إليه ليس هو هذا، بل الذي يقوله ويراه هو أن جملة من القرآن لفظه ومعناه من عند سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن تقوِّله على الله.

6 – إن ما هو منقول في بعض كتب التراث الإسلامي من أن بعض الناس قد ذهب إلى أن معنى القرآن من الله وأما لفظه فمن عند سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فلم يعرف لهذا القول قائل، ولم يصرِّح أحد من العلماء الذين نقلوا هذا القول باسم القائل به، وقد نسبه الإمام الماتريدي في تفسيره إلى بعض الباطنية الذين يقول عنهم الإمام النسفي في عقيدته: "والنصوص تحمل على ظواهرها والعدول عنها إلى معان يدّعيها أهل الباطن إلحاد بكفر"، ومع ذلك لم يقل قائلُ هذا القولِ: إن سيدنا محمدا قد تقوَّل على الله، كما يقول هذا الرجل، إنما قال "إن سيدنا محمدا قد عبر عن المعاني الموحاة إليه كما هي، وعبر عنها بلفظه تعبيرا صحيحا مطابقا للمعاني الموحاة إليه"، وهذا معنى القول بـ"أن معاني القرآن من الله وألفاظه من عند سيدنا محمد"، وليس لهذا الكلام معنى غير هذا.

7 – إن الرجل لو كان فاهما فهما صحيحا للغة العربية، وكان مؤمنا بأن آيات: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ....﴾ من الله تعالى لما قال بأن لفظ القرآن من عند سيدنا محمد حتى بالمعنى المطابق لهذا الكلام؛ فإن الآية الأخيرة منها ـ وهو قوله تعالى: ﴿ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ القلم: ١٥ـ صريحة في أن ألفاظ القرآن من الله تعالى لا من عند سيدنا محمد، وذلك أن "التلاوة" كـ"القراءة" أمر يتعلق بالألفاظ لا بالمعاني كما نصت عليه معاجم اللغة العربية، وقد جعل الله تعالى الآيات من المتلو الذي هو اللفظ، وأضافها إلى نفسه، فأفادت الآية الكريمة أن ألفاظ آيات القرآن من الله تعالى وليس معانيها فقط، ومثل هذا التعبيرـ أي التعبير بالتلا وة عن آيات الله ـ كثير الورود في القرآن العظيم ،وكل آية ورد فيها هذا التعبير هي دليل مستقل على أن ألفاظ القرآن كمعانيه من الله تعالى.

كما أن هناك آيات أخرى كثيرة هي صريحة في أن ألفاظ القرآن كمعانيه من الله تعالى، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ يوسف: ٢، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣﴾ الزخرف: ٣. فقد دلت الآية الأولى على أن القرآن في حال نزوله قبل أن يتلقاه محمد صلى الله تعالى عليه وآله كان لفظه عربيا، ودلت الآية الثانية على أن الذي جعل لفظه عربيا هو الله تعالى وليس محمدا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

8ـ إن هذا الرجل قد وافق بعض الموافقة الحلَّاف المهين في قوله عن آيات الله: "إنها أساطير الأولين"، أي إنها من تقوِّل محمد على الله تعالى، وليست من كلام الله تعالى.

9 – إن المعتزلة عندما قالوا "إن ألفاظ القرآن مخلوقة" قصدوا أن الله تعالى قد تولى خلقها، وأنها مخلوقة لله، ومن أجل أنها من عند الله تعالى جاءت معجزةً، ولم يقل واحد من المعتزلة ولا أحد من المسلمين: "إن ألفاظ القرآن من عند سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم"، وما قاله المعتزلة لا يأتي بأي خلل في أمانة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا في صدقه، بل لا علاقة له بذلك.

10 – حتى القول المجهول القائل بأن ألفاظ القرآن من عند سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع أنه مخالف للنصوص ولإجماع الأمة، هو أيضا لا يأتي بأي خلل في أمانة الرسول صلى الله عليه وسلم وصدقه، بل هو مؤكد لذلك، لأن قائله – إن كان له قائل– يقصد: أن الرسول قد أدى المعاني الموحاة إليه على وجهها كما يجب أن تؤدى.

11ـ إن مشكلة الرجل في قوله بأن لفظ القرآن من عندمحمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم :أنه قداعترض أمام الرجل مشكلات متعلقة بالقرآن ، فلم يستطع حلها إلا بذهابه إلى هذا القول الذي لم يقل به أحد من المسلمين، وبذهابه ـ بناءا عليه ـ إلى القول بأمور تقضي على الإسلام بأصوله وفروعه، مع أن مجموعة من كبارعلماء الأمة قد

تكلموا على هذه المسائل وحلوها بطرق موافقة للعقل والنقل، وما مثل الرجل في لجوءه الى هذا الحل المخالف للعقل والنقل إلا كمثل من قال :"فزعت من النقد وصلت على الأسد"،والنقد صغار الغنم، وأقول للرجل نصيحة: "ماهكذا تورد الإبل يا سعد" .

12- وأما قول الرجل عن آيات القتال "إنها من تقوّل محمد على الله تعالى" وعدم رضاه عمّا تحتويه هذه الآيات من الأمر بالقتال فنقول: إن الله قد أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا، وفرض على الناس كافة الإيمان به واتباع الدين الإسلامي الذي أتى به من قبل الله، فكان من واجب الرسول والذين معه والذين آمنوا به أن يسعوا في نشر هذا الدين إلى المكلفين به، ومن المعلوم عند كل عاقل أن هذا النشر لم يكن ليتم لولا أنهم جاهدوا في سبيل الله حق جهاده، فلولا بركة الجهاد في سبيل الله لما أمكن للإسلام أن ينتشر في ربوع العالم، بل لما أمكنه أن يخرج عن المدينة المنورة، بل لتحزب عليه الأحزاب وقضوا عليه وهو في مهده، وصار في خبر كان.

وأقول لهذا الرجل خاصة: لولا بركة الجهاد في سبيل الله لبقيت أنت وقومك إما شامانيين أو نصارى أو ملاحدة أو.. أو .. ولما تشرف قومك بالإسلام، فهل أنت راض عن هذا؟!

13- وقبل الأخير نورد هنا ثلاث آيات متتاليات مع شرحٍ مختصرٍ لها لعل الله تعالى ينفع بها من كان على هذا الرأي الخطير إن لم يكن يعتقد أن هذه الآيات من تقوّل محمد صلى الله عليه وسلم على الله:

قال تعالى:﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧﴾ يونس: ١٥ -١٧، يخبر الله تعالى عن تعنت الكفار الجاحدين أنهم إذا قرأ عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم آيات الله الواضحات –وفيها تقبيح ما هم عليه من العقائد الباطلة وسب آلهتهم – قالوا: ائتنا بقرآن آخر من نمط آخر ليس فيه هذا التقبيح والسب، أو بدِّله بحيث لا يخالف ما نحن عليه، قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾أي لا يجوز لي أن أبدل القرآن، وليس أمر القرآن إليّ، إنما أنا عبد مأمور

ومبلغ عن الله، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، فليس هذا الكتاب من عندي ولا الأمر فيه إليّ حتى أبدله من تلقاء نفسي، وتبديل شيء منه عصيان كبير لله وموجب للعذاب العظيم، ثم قال محتجا على أن أمر القرآن ليس إليه وليس له أن يفعل فيه شيئا من عنده: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: ولا أعلمكم الله به بواسطتي، أي إن أمر القرآن إلى الله وليس إليّ حتى تقترحوا عليّ هذا الأمر الذي لا يجوز لي ولا هو مفوّض إليّ، بل هو عصيان لله تعالى ومخالفة لما يوحى إليّ، ثم بيّن أنه لا يجوز لعاقل أن يتوهم أن الأمر بيده ولا أن يقترح عليه التبديل، ولا أن يجوزه عليه، واستدل على ذلك بأقوى حجة، فقال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي: أقمت بينكم زمنا طويلا أربعين سنة قبل البعثة ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي من قبل القرآن، وتعرفون مني الأمانة والصدق وقد لقبتموني بـ"الصادق الأمين" وتعرفون أني أمي لا أقرأ ولا أكتب، فكيف يتأتى لي أن أجيء بهذا القرآن المعجز بنظمه وبما حواه من العقائد ومن أحكام العبادات والمعاملات ومكارم الأخلاق، ومن الإخبار عن الغيوب الماضية والآتية، وغيرها، وكيف يجوز لي أن أبدله وأن أغيره وليس أمره إلي، وهو من ربي وأمره إلى ربي، وقد ائتمنني ربي عليه؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتدركون امتناع صدور هذا الأمر مني، وأنه لا يجوز أن يكون القرآن إلا من عند الله العلي الكبير، ولا يجوز لمثلي أن يغيره أو يبدله، ولا يمكنه أن يأتي بقرآن مثله.

هذه الآيات وحدها ولاسيما الآية الأخيرة منها كافية لمن تدبرها في القطع بأن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق في دعواه الرسالة من قبل الله، وفي الجزم بأن القرآن كلام الله تعالى، كما أنها كافية في الجزم باتصافه صلى الله عليه وسلم بالأمانة في التبليغ والصدق فيه.

14 – وأخيرا نقول: إن رأي الرجل هذا مخل بأمانة الرسول صلى الله عليه وسلم في تبليغ الوحي وبصدقه فيه، وقاض على صحة رسالته، وقاض على الوثوق بكل ما أخبر به عن الله تعالى، وقاض على قداسة القرآن العظيم وعلى الوثوق به، وقاض على العقيدة الصحيحة في حق الله تعالى، وقاض على الدين الإسلامي بأصوله وفروعه، ومؤد إلى الكفر البواح الذي لا يجوز أن يختلف فيه اثنان.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد النبي الأمي الصادق الأمين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

محمد صالح بن أحمد الغرسي

يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من ربيع الثاني 1442هـ، الموافق للخامس عشر من ديسمبر 2020م.

قونيا – تركيا